



حقائق من التاريخ لنا يعلمهن كثير من الناس بقلم الأستاذ الزاهري العضو الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

أردت أن أطلع على الكتاب الذي أرسله الأمير عبد الله بن سعود صاحب الحجاز ونجد إلى المولى سليمان سُلطان المغرب الأقصى وأردت أن أطلع أيضا على نص جواب السلطان عن هذا الكتاب، فطلبتهما في مظانهما، والتمستهما في كتب التاريخ، فلم أظفر بنص الكتاب ولما بنص الجواب ولكنني حصلت على ما أذكر لك خلاصته فيما يلي :

في سنة 1226 هـ أرسل المولى سليمان صاحب المغرب الأقصى نجله الأمير عبد الله بن سعود صاحب الحجاز ونجد، وكان في معية المولى إبراهيم كثير من العلماء والأعيان، فلما حجوا البيت الحرام، وقضوا مناسكهم وزاروا الروضة النبوية المشرفة، اجتمعوا بالأمير بن سعود فقابلهم بالحفاوة والبشر، ووجدوه كواحد من الناس لنا يتمي زبزي ولما مركوب ولما ملبوس، وتباحثوا معه فقال لهم: إن الناس يزعمون أننا مخالفون لسنة المهدية، فهل رأيتمونا خالفنا السنة في شيء، فقال له القاضي في ذلك العهد: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي، فقال ابن سعود: بل نقول كما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والمسؤال عنه بدعة، فهل في هذا مخالفة؟ قالوا: لا، ونحن أيضا نقول بمثل هذا، ثم قال القاضي: وبلغنا أنكم تقولون بعدم حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره، فلم أسمع ابن سعود ذكر النبي رفع صوته بالصلاة عليه وقال: إن ما نقول أنه صلى الله عليه وسلم في قبره حياة فوق حياة الشهداء، وقال القاضي: وبلغنا أنكم تمنعون زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة سائر الأموات، وهي ثابتة في المصاحح، فقال الأمير ابن سعود: معاذ الله أن نذكر ما ثبت في شرعنا، وهل منعناكم أنتم من الزيارة؟ وإن ما تمنع العامة الذين يشركون العبودية بالردوبية، وسبيل الزائر أن يعتبر بحال الموتى، وأن يدعو لهم ويستغفر لهم، ويسأل الله تعالى المنفرد بالمنع والإعطاء بحاه ذلك الميت إن كان ممن يليق أن يستشفع به، هذا قول إمامنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ثم إن العلماء المغاربة لم يشاهدوا من الأمير ابن سعود أدنى شيء يخالف الشريعة، وإن ما شاهدوا منه ما وأتباعه غاية الاستقامة، والقيام بشعائر الإسلام... ونهي عن المنكر الحرام، وتطهير الحرمين الشريفين مما كان يرتكب فيهما من المقادورات والآثام جهارا من غير نكير!

ولم يرجع الوفد المغربي إلى المغرب الأقصى وقصوا على المولى سليمان ما شاهدوه في الحجاز من الأمن المشامل والعمل بالمقرآن الكريم والسنة النبوية في العبادات والمعاملات أثر ذلك فيه أحسن تأثير حتى أنه ألف كتابا (كما قال صاحب الاستقصاء) في الرد على «مُتصوفة وقته»، حدث فيه على التمسك بالسنة وترك وعلى ترك البدعة، وشنيع المبتدعين من «مُتفجرة زمانه» وتكلم عن الزيارة وعن دعاء غير الله بما يوافق الموهبيين أو حنابلة نجد في رأيهم، ولما يخالفهم، وأورد صاحب الاستقصاء رأي حنابلة نجد في الزيارة ودعاء غير الله ثم أرففه بتفصيل من عنده في «زيارة الأنبياء» ثم قال ما نصه: «وأم الأولياء فالقول بمنع زيارتهم مع بيان علتها... هو قول وجيه، تقتضيه قواعد الشريعة المطهرة، وهذا القول هو الذي رآه الشيخ الفقيه المصوفي أبو العباس أحمد التجاني رحمه الله حتى نهى أصحابه عن زيارة الأولياء (راجع الاستقصاء ج 4 ص 146)».

ومقتضى عبارة الاستقصاء أن الشيخ رحمه الله لم يقل بمنع زيارة الأولياء من تلقاء نفسه وإن ما كان في هذه المسألة تابعا للوهابيين، وفي كتب الطريقة التجانية كثير من الحوادث والوقائع التي نهى فيها الشيخ أصحابه عن زيارة الأولياء، ومع أن هم قد نفوا أن يكون الشيخ قد منعهم من الزيارة أنانية واستأثارا، فقد جاء بتأويل كثير، ولكننا لا يوافق المنطق والتاريخ، وزعم زاعم أن الشيخ التجاني أنما منع من زيارة الأولياء خوفا على أتباعه ومريديه من معاصره ومذاهبه القوي الشيخ الفقيه المصوفي أبي عبد الله محمد العربي الدرقاوي الذي كان يجذب إليه قلوب الذين يستمعون إلى وعظه وإرشاده، وأنا أعتقد أن هذا الزعم غير صحيح فالشيخ التجاني ليس في حاجة إلى أن يمسك عليه أتباعه ومريديه بمثل هذا الأمر فأحبابه لا يؤثر فيهم لنا الشيخ الدرقاوي ولما غير الدرقاوي، على أن أتباع كل شيخ طريقة لا يزورون من عند أنفسهم أي شيخ طريقة أخرى من غير أن يحثهم على

ذلك أحد من الناس .

□□□□□□□□□□ ولقد كانت المُنَافسة بين المتَّجاني وبين الدرِّقاوي مُنافسةً شديدةً حقًّا على أتمِّ ما تكون قُوَّةٌ وعُنفًا . وجرت بينهما ذات يوم في مسجد جامع مُناقشةٌ حادةٌ وخصا طویل ربَّما نُشره مرةً أخرى . ولكن ذلك كله لا يحمل المتَّجاني على التملق والتفلسف والمسِّخافات ، وهو الذي عُرِف منه المهمَّة المتي لا تتعلَّق إلا بمعالِي الأمور .

□□□□□□□□□□ إنَّ المخصومة التي كانت بين هذين المشَّخصين كانت في صميمها سياسيَّة محضه ، وإن كانت تلبس لباس المدين . وذلك أنَّ المولى سُليمان كان يرى في الطريفة الدرِّقاويَّة والطريفة الطيبيَّة وغيرهما أحرابًا سياسيَّةً وتشكَّلات مُناهضة تعمل لإسقاط وسحق سُليمانه ، ولقلب نظام الحُكم في المغرب الأقصى . وبعبارةٍ أُخرى أن هذه الطرُق المصوِّفيَّة في نظره كانت تعمل لفائدة >> الأدراسة >> المدين لا يزالون يتطلعون إلى عرش المغرب الأقصى . ويتوثِّبون عليه من حين لآخر . والمولى سُليمان مُحق في رأيه هذا . فالمشَّيخ الدرِّقاوي مثلًا كان تآمر مع أهل فاس على خلع المولى سُليمان وعلى مُبايعة المولى إبراهيم بن يزيد ، وسجن المشَّيخ الدرِّقاوي من أجل ذلك ، وقد جاء عياله وذريته إلى السُّلطان يتضرعون إليه أن يُطلق سراح >> كاسبهم >> فرفض شفاهتهم ولم يقبلها . وتركه مُمتحنًا مسجونًا ولبث كذلك حتى توفي السُّلطان إلى رحمة الله وكم من فتن وثورات قامت في المغرب الأقصى على المولى سُليمان وعلى غيره من السُّلاطين . وكانت كلُّها مكن المُتشوفين إلى العرش والطامعين في المُلك من أشياخ الطرُق وأرباب الزوايا .

□□□□□□□□□□ وقد جرَّب المولى سُليمان أن يكون هو نفسه شيخ طريفة صوفيَّة (أو رئيس حزب سياسي) ليكثر من حوله الأشياخ والأندصار . ولكن ما يتطلَّب به العرش من أبهة وجلال ، ومن رسميات وتقاليد حالت بينه وبين ما يريد ، وليس من السهل أن يُؤسس المولى سُليمان >> طريفة صوفيَّة >> يخضد بها شوكة الطرُق المصوِّفيَّة الأخرى ، فإنَّه إن نصب عليها قريبًا من أقاربه المشَّرفاء خاف من هذا القريب نفسه أن يثور عليه . وأن يطلب المُلك لنفسه متى كثر حوله الأتباع والأندصار والمريدون . فلم انتقل المشَّيخ المتَّجاني إلى فاس وجد فيه السُّلطان ضالته المنشودة فالشَّيخ صوفي مشهور . وله أتباع غير قليلين . وهو جزائري الأصل والمفصل لا يخاف السُّلطان منه أن يدعي المُلك لنفسه وهو في ديار الغُربة . فاقتبله السُّلطان وآواه وأكرم نزله ومثواه ، وأعطاه دارًا من دوره كان قد أنفق في بنائها وتأسيسها مالًا كثيرًا . وكانت هذه الحظوة التي حظَّها المشَّيخ عند السُّلطان سببًا في انتشار الطريفة المتَّجانيَّة بين رجال الدولة والمقربين إلى السُّلطان من موظفين وغير موظفين وتتابع الناس يعتنقون هذه الطريفة >> والناس على دين مُلوكهم << كما قيل

حتى كادت تُصبح هي >> الطريفة الرسميَّة >> لدولة المغرب الأقصى ونحن لا نعلم يقينًا أنَّ المولى سُليمان قد فرض على الناس فرضًا أن يكونوا (تجانيين) ولكننا نعلم أنَّه قد أعجب بالشَّيخ المتَّجاني (واعتقده) ونعلم أنَّه قد أظهر هذا الإعجاب وهذا الاعتقاد ، على أننا نعلم أيضًا أنَّه كان ساخطًا على كثير من أشياخ الطرُق الأخرى . وفي حديثك التاريخ أن الرجل المغربي قد يكون ذا مال كثير . وقد يبيت بين أهله ذاهم البال آمنًا سربه . وما هي إلا أن يشتد الظلم حتى ينقض عليه زبانية السُّلطان أو زبانية عامل من عمال السُّلطان فلم يدعوا له مالًا إلا نهبوه ولما جارية إليها سحبوها ولما عيالا إلا شردوه ولكنَّه إذا كان (تجانيًا) فهو (محرر) لا يمسونه بسوء . ولما يذالونه بأدنى أدنى . ومن هنا شاع بين العامة أن من اعتنق الطريفة المتَّجانيَّة ضمنت له المشروبة والغنى ! . ولقد تبارى في مدح المشَّيخ المتَّجاني وفي إظهار كراماته وفضائله ومُعجزاته كل أولئك الذين يبتعون عند السُّلطان (التقرب والمزلفى) وكان يرتاح لذلك ويتقبله قبولًا حسنًا .

غير أن الشيخ المتجاني رحمه الله بعد أن غادر بلاده (الجزائر) مكرها، وبعد أن ترك فيها أشياعه وأنصاره، وبعد أن ضاعت فيها آماله ومطامحه وأمانيه لم يعد يعنيه أن يجتمع عليه الناس أو أن ينفض من حوله (الأحباب) والمريدون فكان رضي الله عنه لا يبالي بهذه الحظوة التي حظيها عند السلطان، كأنه كان يعلم أن (وراء الأكمة ما وراءها).

ولقد قرأت أن هذا الشيخ نهي أتباعه عن زيارة الأولياء ونهاتهم عن (التمشيخ) قائلا: إن دعوى المشيخة من سوء الابداع، وترك هو المشيخة فعلا وأخلق بابه دون أحبابه ومريديه فيما رواه عنه بعض المتجانين فظننت أنه قد عرف من السلطان أنه إن ما اتخذته آلة لمقاومة الطرق الأخرى، وهذا ما لا يريد الشيخ لنفسه، ولما يرضاه لها فترك المشيخة — لذلك — وكان من أمره ما كان، ولكنني اليوم أصبحت أعتقد أن الشيخ إن ما ترك المشيخة ونهى عن الزيارة اقتداء بابن عبد الوهاب، ورجوعا منه إلى الكتاب والسنة.

كان الشيخ المتجاني معاصرا للأمر عبد الله ابن سعود الذي استولى على الحجاز، وطرد منه الأتراك العثمانيين، وبلا شك أن الشيخ قد بلغه وقد سمع أن الأمير بن سعود هذا قد أحيى السنة النبوية وعمل بالمقرآن وأذنه طهر المحرمين الشرعيين مما كان يرتكب فيهما من الموبقات والآثام في المنهار المبصر دون نهي ولما تكبر فسار بهذه الأخبار، وكان الشيخ نفسه قد حج إلى بيت الله الحرام فلا يبعد أن يكون قد لقي في حجّه بعض علماء نجد الحنابلة فأخذ عنهم آراءهم في (الزيارة) و(المشيخة) والشيخ عندما كان يطلب (علم القوم) لم يكن يطلبه لذاته، بل كان يطلب فيه الخير والمهدي فلم يجد أن الخير كله في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأن المهدي هدى الله، ترك المشيخة وعلم القوم وتمسك بالسنة والكتاب.

وكان الشيخ قد أرسل بعض أصحابه إلى الحجاز في مهمة لا نعلمها، وهي ما تزال إلى هذا اليوم سرا مكتوما، لأن هذا الرسول قد أفضى إلى عمله ومات في طريقه، ولم يرجع إلى شيخه، ولكن من يدري؟ فلعل هذه المهمة كانت كتابا أرسل به الشيخ إلى الأمير بن سعود ليتفق معه على نشر الكتاب والسنة، وعلى الدعوة إليهما في هذه الديار، وبين الأمير بن سعود وبين الشيخ المتجاني رابطة قوية أخرى تربط ما بينهما فكلاهما ناقم ثائر على الأتراك، أما ابن سعود فأمره مع المتترك معلوم وأما المتجاني فقد كان ناقما على أتراك الجزائر، وحاول غير مرة أن يثور عليهم وأن يردعهم بحد السنان، وعزم ذات يوم على الثورة وأعد لها عدتها وسعى لها سعيها، والمتقى في جمع من أنصاره حوالي مدينة ميسرة مع جنود الأتراك، ولكن ثورته هذه كانت فاشلة، وانسحب من الميدان قبل الشروع في القتال، فكان ذلك سببا في حقن كثير من دماء المسلمين، ثم اضطره الأتراك إلى مغادرة البلاد، ولكن ابنه سيدي محمد دخل الجزائر بعد وفاة أبيه خائفا يتربص، وجمع الجموع وأعلن الثورة على المتترك حوالي ميسرة أيضا فجردوا حملة عليه عسكرية هزمته وقتلته ومثلت به تمثيلا شنيعا، ومن هذا تعرف أن الشيخ رحمه الله كان ناقما على الأتراك الناقمة كلها، وهذا مما يجعله يعطف على ابن سعود ويرتضي الدعوة الوهابية كثورة على الظلم والفساد وكدعوة إلى الدين الخالص المقيم الحنيف.

وبعد فهذه أفكار وآراء ما أريد أن أفضها فرضا على القارئ الكريم، ولكنني رأيتها صادحة لتعليق منع الشيخ المتجاني لأحبابه من زيارة الأولياء ولتعليل تركه المشيخة وقوله عنها أنها من سوء الابداع، ولم تقم عندي الشواهد والبيانات المقاطعة حتى أجزم بأن الشيخ المتجاني كان «وهابيا» بأنهم معني الكلمة، غير أني لا أتردد أن أقول — بكل جزم ويقين — أن الشيخ المتجاني هذا كان يحب الدعوة الوهابية ويوافق عليها، وأنه كان ينظر إليها بعين الغبطة والرضى.

وهران محمد السعيد الزاهري (المصراط السوي العدد السابع)

